شهريّات

بقلم رئيس التحرير

المعجم العربيّ الطموح

أودّ في « شهريّات » هذا العدد أن أحدّث القرّاء عمّا يشغل وقتي ويستأثر بجهدي، منذ أوائل هذا العام.

فقد اعتزمنا، صديقي العالم اللغوي المعروف الدكتور صبحي الصالح وأنا، ان نضع معجماً عربياً جديداً أصبحت الحاجة إليه ملحّة في أوساط المثقفين والأدباء واللغويين والطلاّب.

ذلك ان المعاجم (أو المعجمات كما يؤثر الدكتور الصالح) التي تتداولها الأيدي الآن تشكو من نقائص كثيرة، أهمّها:

١ - أن معظمها لا يزال يتبع المنهج القديم في التصنيف، إذ يعتمد في أصل المادّة المصدر الثلاثي أو الرباعيّ، ثم يتابع اشتقاقاته كلّها مهما تغيّرت أشكالها. والطالب يجد صعوبة كبيرة في الوصول إلى الكلمة التي يريد، وقد يضطر إلى قراءة المادة كلّها حتى يعثر على بغيته، وفي ذلك ما فيه من هدر للوقت والجهد.

صحيح أن هناك بعض المعاجم التي اعتمدت في التأليف المنهج الحديث في اثبات الكلمة ابجدياً كما تنطق وتلفظ، ولكن الاضطراب لا يزال واضحاً في تصنيف الكلمات.

٢ - أن المعاجم المتداولة فقيرة فقرا مدقعاً في الاستشهاد والتمثيل، لا سيما المعاجم الموضوعة في هذا القرن العشرين. ولا شك ان المعاجم العربية القديمة أفضل، في هذا الباب، منها، إذ هي تورد كثيراً من الاستشهادات المقتبسة من القرآن الكريم أو الحديث أو الشعر، وهو ما تقصّر فيه المعاجم الحديثة، من غير أن تعوّض عن ذلك بالنصوص الحديثة. وهذا ما يورث الطالب ضيقاً وتحرّجاً في الإفادة الكاملة من اللغة واستعمال مفرداتها استعمالاً صحيحاً واضحاً.

٣ - تقصّر المعاجم المتداولة تقصيراً فادحاً في « تفجير » طاقة لغتنا باغنائها بالمعاني المجازية والاستعارات والكنايات وصنوف البديع والبلاغة. وهي إذ تمتنع عن استغلال هذه الطاقة تعمل على تعطيل الإبداع الذي تكشف اللغة العربية عن امكانية كبيرة في خلقه. ولما كانت لغتنا في العصر الحديث قد قطعت أشواطاً كبيرة من التطوّر والغنى والتيسير، فإن من واجبنا دفع هذا التطوّر والكشف عن مجالاته ومساعدة القراء والطلاب في استغلال هذا الغنى الإبداعيّ، بالإرشاد إلى مختلف الاستعمالات الممكنة.

٤ - تشكو المعاجم المتداولة من غياب شبه كامل للمصطلحات العلمية الحديثة (في الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الحياة الخ...) والمصطلحات الفلسفية والأدبية والحقوقية أو ما إليها. وبالرغم من أن المجامع العربية قد وضعت كثيراً من هذه المصطلحات وأجازتها، فإن إدراجها في المعاجم الحديثة ظلّ معدوماً أو محدوداً جداً.

٥ - في المعاجم المتداولة إهمال واغفال لجذور الكلمات، هذه الجذور التي إذا أشير إليها مكّنت من استغلالها في اشتقاقات جديدة تفرضها تطلّبات الحياة وحاجاتها الجديدة. كما ان هذه المعاجم لا تميّز في الاستعمالات بين الفعل اللازم والفعل المتعدّي، مما يوقع الطالب في الارتباك حين يريد الافادة من هذه الاستعمالات.

هذه أهمّ النقائص التي تشكو منها المعاجم العربية المتداولة. وهناك اليوم اقتناع بأننا ما نزال نفتقر إلى المعجم العربي العصري الذي يستجيب لحاجات القراء والطلاب، ويلبّي رغبتهم، بله فضولهم، للوقوف على أسرار اللغة العربية وطاقتها على التجدّد.

والمشروع الذي أخذنا على عاتقينا، انا والدكتور صبحي الصالح، النهوض به، يحاول ان يسدّ هذه النقائص ويملأ تلك الفجوات. وقد دفعتنا إليه كلينا حاجةٌ كنت قد احسستها لدى طلاّبي في الجامعة قبل أن انقطع عن التدريس منذ سنوات، ولا يزال يحسُّها الدكتور الصالح عند طلاّبه في الجامعة، فضلاً عن شكوى الأدباء والمثقفين من غياب مرجع معجميّ يستشيرونه على ثقة واطمئنان.

وقد عمدنا، قبل ان نشرع في التصنيف، إلى دراسة المعاجم المتداولة لنقف على مصادر الشكوى فيها، ثم انصرفنا إلى استكمال دراسة المناهج الأجنبية الحديثة في وضع المعاجم، ولا سيما المناهج الفرنسية التي سبق ان احتذيتها في وضع قاموس «المنهل» (فرنسي- عربي) الذي ألّفته في السبعينات مع الدكتور جبور عبد النور، واعتمدته المراجع اللغوية والجامعات بسبب من وضوح منهجه التأليفي وسهولة استعماله.

ونحن لا نحسّ أية عقدة أو شعور بالنقص في احتذاء المنهج الأجنبي في هذا الميدان أيضاً، من غير التقيّد بجميع خطوطه، مما قد لا ينسجم مع طبيعة اللغة العربية، ولكن الاقتداء به في الخطوط الكبرى، ولا سيما اعتماد الترتيب الأبجديّ، دلّ على أفضليته في التصنيف.

وسيجد الطالب في معجمنا معظم ما يحتاج إليه، لكي لا نقول كل ما يحتاج اليه فنقع في الادّعاء والغرور.

سيجد فيه جذر الفعل غير الثلاثي.

وسيجد فيه التقسيم والتمييز بين الفعل اللازم والفعل المتعدّي، وسيجد فيه المصطلحات العلمية الحديثة كما أقرّتها المجامع أو كما أوصلنا إليها اجتهادنا الخاص.

وسيجد فيه «التفجير» المطلوب لطاقة اللغة العربية في إبداع المعاني المجازية، واثبات المولد الحديث.

على أن أهمّ ما سيحمله معجمنا الجديد هو توسيع إطار الاستشهاد والتمثيل بإيراد النصوص الحديثة التي ابتدعها ادباؤنا وشعراؤنا المعاصرون، فكان فيها إغناء كبير للغتنا العربية. وسنحاول في هذا الباب ان نورد كل ما نستطيع من الشواهد التي تضمنّها الانتاج الحديث تجديداً للألفاظ والمعاني والاستعمالات والعبارات، وهو ما سيؤكد طواعية اللغة العربية لمقتضيات الحياة العصرية وقربها من أذواق المثقفين والتدليل على حيويتها الدائمة ومرونتها الكبيرة.

* * *

والآن، لا بدّ للقارىء الكريم من أن يحكم على مشروعنا هذا بأنه «طموح جداً».

ونحن نقرّ بذلك. ولكننا نعتقد في الوقت نفسه بأن المشروعات التي لا يحدوها الطموح الكبير لا يمكن أن تقدّم الخدمة المطلوبة.

إن معجمنا الذي نقدّر له أن يصدر في أواخر عام ١٩٨٢ سيكون اكبر معجم عربي حديث، وسيكون في ثلاثة مجلدات ضخمة على الأقل، ولكننا سنستخرج منه ثلاثة معاجم أخرى لحاجات الجامعيين والثانويين والطلاب.

ندعو الله ان يمنحنا القوة والصحة والوقت لإنجاز هذا العمل وتقديمه خدمة للغة العرب وأمة العرب.

«حكاية بحّار»

أفسد عليّ حنّا مينه المتعة التي كنت أريد أن أصيبها من رحلة قمت بها أول هذا الشهر إلى المغرب والجزائر.

كنت أودّ أن أزور في هذين البلدين العربيين بعض المدن التي لم تتح لي من قبل فرصة التعرّف إليها، ولا سيما المدن الشاطئية الرائعة الجمال.

ولكنّ حنّا مينه سمّرني في غرفتي بالفندق بين مدينة «الدار البيضاء» في المغرب، والجزائر العاصمة.

بيد أنّ هذا الروائيّ العربي المبدع عوّضني عن متعة الرحلة والتنقّل والمشاهد الجميلة بمتعة رحلة ساحرة قمت بها مع أبطال روايته الجديدة «حكاية بحّار» التي حملت مخطوطتها، آملاً أن أسرق من برنامج الرحلة ساعات قبل النوم أو عند اليقظة لأقرأ فيها.

قال لي «سعيد حزّوم» بطل الرواية: أَجِّل هذه الرحلة الخارجية السطحية، وتمدَّدْ على هذا الكرسيّ الطويل لتستمع إلى حكايتي.

وتمدّدت صباح اليوم الثاني من الرحلة على ذلك الكرسيّ الطويل، ورحت أقرأ، أقصد أصغي إلى سعيد يحدّثني عن البحر، ذلك الصديق- العدوّ، الرقيق- المتوحّش، العطوف- القهّار..

ولم أستطع أن اقاطع سعيد حزّوم طوال أيام صرفني فيها عن كلّ شيء، الا عن صوته، وعن عالمه، وعن تلك الأجواء العجيبة التي أصبح حنا مينه نسيج وحده بين الروائيين العرب في تصويرها وتحليلها، بل لا أحسبني أبالغ إذا ذهبت إلى أنه «روائي البحر» الأول، ليس في الأدب العربي وحده، بل في الأدب العالمي كلّه.

لن أتحدّث عن هذه الرواية التي تجاوز فيها حنا مينه كل انتاجه السابق، ولن أتكلّم عن عمق النزعة الانسانية التي تسري في جميع أوصالها، ولن أشير إلى التزام المؤلّف بالموقف القومي العربيّ الذي يتجلّى في نضال أبطاله ضد الاستعباد التركي والاستعمار الفرنسي، على انتمائهم إلى طبقة العمّال البحريين... ولن أنوّه باللغة الرشيقة والصور العجيبة واللفتات الرمزية الموحية التي يُحفل بها هذا الأثر الفنيّ الفريد.

سيتناول الباحثون والنقاد جميع هذه الجوانب حين يعرضون لدراسة «حكاية بحّار».

واعتقد كذلك انه لن يكون أمامهم مفرّ من ان يعقدوا المقارنات بين الروائيين الذين كان البحر بطلهم الأول في بعض رواياتهم، وبين حنا مينه. سيقارنون حتماً بين «حكاية بحّار» لكاتبنا العربي، وبين «الشيخ والبحر» لهمنغواي و «حكاية غريق» لغابرييل غارسيا ماركيز.

وهنا أتذكّر فوراً ان هذين الروائيين نالا جائزة نوبل، فأتساءل بلا تردّد: أتظلّ الاعتبارات التي لا تمتّ إلى الفنّ الحقيقي بصلة حائلة دون أن ينال هذه الجائزة روائيون عرب من مثل حنا مينه؟

سهيل ادريس